« على هامش السيرة »

بقلم الاستاذ عباس محمود العقاد

[« على هامش السيرة » كتاب نفيس اصدره اخيراً الأستاذ الدكتور طه حسين . وقد تفضل الاستاذ الكبير عباس محمود العقاد ، فكتب عنه هذا الفصل القيم الذي ننشره فيما يلي]

قصة ممتعة موحية ، يتابعها القارىء بشوق وينتهي منها إلى فائدة

وهي ممتعة لانها تنقل الشخوص والاسماء من عالم التاريخ والخبر الى عالم الحياة والشعور : فالشخوص فيها آباء وأمهات وأزواج وأحباب ، وليسوا بعناوين مسطورة كعناوين المعالم المدثورة فى الصحائف المهجورة . والعلاقة بينهم علاقة حب ورحمة أو بغض ونقمة ، أو اخلاص وغيرة ، أو طمع وخديعة ، وليست علاقة كلام بكلام أو أشياء باشياء

وتزيدنا البساطة فيها شغفاً بها وعطفا عليها ، فهي قد نقلت الينا الحياة الجاهلية والحياة فى أوائل ظهور الاسلام كما كان يألفها أصحابها لا كما نألفها نحن ، أو كما فهموها بالبداهة والفطرة لا كما نفهمها نحن بالتحليل والتعليل . فأسباب انتشار اليهودية فى اليمن - مثلا - هى أسباب المعجزة والكهانة والاسرار الغيبية وليست هى الأسباب التى نعقلها نحن بعد ان نعرضها على الفكر ونقابل بينها وبين النظائر والاشباه ، وانكار الكاهن اليونانى لاساطير الوثنية هو انكار الالهام والرؤيا وليس بانكار التمحيص والتفنيد ، وكذلك كل ما فى القصة من أسباب ومن ايمان ومن انكار . قال قائلٌ من اللاغطين بالنقد على غير بصيرة : ما أحسب إلا ان الدكتور طه حسين قد شبع من اغضاب الجامدين فهو يتصدى هنا لاغضاب المحدثين، وما أحسب الا انه يكتب ليثير ويستثير ! فمرة تقع النوبة على أهل الجمود ومرة أخرى تقع النوبة على اهل التجديد !

قلت : بل أنا أحسب غير ذلك ، ولا أرى فى الأمر شيئا من قصد الاثارة والاغضاب

أحسب ان الدكتور طه قد ملىء اعجاباً بالنسق الهومرى فى تمثيل وقائع الابطال وأنباء العصور فاراد ان يخرج لنا الياذة نثرية عربية ، يشترك فيها عالم الشعر البليغ وعالم التاريخ الصادق ، وتجرى حوادثها فى آفاق الزمان الغابر الذى لاحدود فيه بين الغيب والشهادة وأسرار الخيال والحقيقة ، فنحن نفهم الالياذة ولا نجهلها او ننكرها لانها قد أفرغت فى ذلك القالب وانتظمت على ذلك الاسلوب ، ثم نحن نفهم « هامش السيرة » ولا نجهله او ننكره لانه نقل الينا الجاهليين كما كانوا فى حياتهم وعقائدهم وافكارهم ، ولم ينقلهم الينا كما نكون نحن لو اننا انتقلنا بزماننا الى زمانهم . فهل أصاب الدكتور أو اخطأ ؟ وهل أحسن من ناحية القصص أولم يحسن ؟ أما أنا فأرى ان أسلوب التعليل والتحليل لا يزداد شيئاً كثيراً لو أننا جعلنا الجاهليين عصريين

يعيشون فى القرن العشرين ، ولكن اسلوب القصص يخسر كثيراً من البساطة والتخيل لو اننا سردنا القصة معللين محللين

وأقل ما يقال فى هذا المعرض ان شفاعة الدكتور فيما اختار من أسلوب ليست بالشفاعة الضعيفة ولا المردودة ، وان حجة الناقدين عليه ليست باقوى من حجته عليهم . بل لا حجة عليه للناقدين ولا وجه هنا للقوة والضعف فى الاحتجاج . انما كانوا يزنون كتاب الدكتور بميزان العلم العصرى لو انه كان يقصد الى العلم العصرى فيما كتب ثم أخطأ فى التطبيق او اساء فى التفسير . فأما وهو لم يقصد الى ذلك ولم يحاوله ولم يرنا قط انه حاوله فأى معنى للاعتراض عليه غير حب الاعتراض ؟ ذاك كمن يحمل اليك الآنية الاثرية فتقول له ان آنيتك ليست من طراز الاوانى التى نراها اليوم على الموائد ! . نعم . ومن قال لك انها كذلك . . انما جاءها فى وضعها الأثرى ومعانيها الاثرية ، فان قبلتها فقد فهمتها ، وان لم تفهمها فليس الذنب على الاثريين !

لكننا لا نريد بما تقدم ان قارىء الهامش ، لن يفهم الوقائع الجاهلية ولا البيئة التى ظهر فيها النبي (عليه السلام) على الوجه الصحيح والوضع المعقول المستقيم

كلا ! بل هو يفهمها صحيحة مستقيمة من موضعين اثنين بدلا من موضع واحد

يفهمها كما كانت فى أعين الجاهليين ، ثم يفهمها اذا شاء واستطاع كما تبدو فى أعين المحدثين ، فيجمع بين زمانين ويرى الصورة المرسومة فى نورين مختلفين

ولا نظن ان قارئاً مستنيراً يطلع على هامش السيرة حق الاطلاع الا وهو مستطيع أن يعرف المقدمات والبشائر التى هيأت البيئة لظهور النبى وظهور الاسلام

فههنا قبيلة نبيلة قد استأثرت بمناسك البيت الحرام واستقلت بأعباء السدانة

وههنا رجل من تلك القبيلة يعرف الهواتف الغيبية ويبلغ من تقواه أن يعرض عن كنوز الذهب والسلاح وهو فقير اعزل . وان ينذر ابناً من أبنائه للآلهة فلا يعدل عن التضحية به الا ان تحله الآلهة أو يحله الكهان

ذلك الرجل هو عبد المطلب جد النبى عليه السلام

وههنا فتى وسيم وضىء محبوب يتقدم الى الموت راضياً إذا دعاه اليه أبوه وكان فى الموت ايفاء بنذر البيت الحرام

ذلك الفتى هو عبد الله أبو النبى عليه السلام

وههنا طفل يولد ، فكأنما لم تخلق قبيلته ولا آباؤه الا لتكون وسيلة الى ظهوره

يحمل به فيتم أجلاً بيه

ويدرج ويترعرع فيتم أجل امه

ويشب قليلا فيتم أجل جده وكفيله

فكل شيء يهيء له المكان ويمهد له الطريق ، وكل ما عدا هذه التهيئة وذلك التمهيد فضول

واقرأ خلائق آبائه وآله تعلم كيف استحقوا ان يورثوه ما ورث من فطرة وقنوت وفطنة : وكيف كان اعلاهم كعباً وأوفاهم نصيباً وأعظمهم شأنا ولكنه كان سليل ذلك الشرف ووريث ذلك البيت لا مراء

وفى خلال ذلك أى رحمة وأى مروءة وأى خليقة انسانية أطهر وأبر وأدنى الى القلب مما اشتملت عليه السيرة فى مختلف الاعمار والاطوار ؟

يتيم يعطف على اليتامى ، ورييب أمة ضعيفة يحض على بر الاماء الضعاف ، وفقير يوطيء اكناف العيش للفقراء ، وتقى من معشر اتقياء يغض من كبرياء السروات وهو فى الذروة بين السروات ، وصاحب دين لا تأخذه فى الدين هوادة ولا ينحرف عنه إلى رحم او قرابة . وكل اولئك فى صورة انسانية محببة قريبة الى الفكر والبداهة . فهى صورة ممتعة وموحية . وهى خليقة من اجل ذلك ان تشوق وان تفيد

* * *

قرأت «هامش السيرة» فلم انكر سياقها فى موضع من المواضع . ولم أتمن لها قط ان تكون على غير ما اختار المؤلف ان تكون

وغاية ما عندى من النقد لها انى وددت لو ضمت من الصور الشخصية التى لازمت طفولة النبى فوق ما ضمت . لأن صورة الخلق الجاهلى أو صورة البعثة النبوية لن تتم بغير مثال من جحود الجاهلية وسورة العصبية ، وهل كان تمثيل أبى لهب هنا بعيداً من الموضع أو بعيداً من الزمان ؟ لقد كان لزاماً أن نعرف الجاهلية التى لقيت النبى بالغطرسة والعرام ، وكانت صورة أبى لهب من ألزم الصور الى جانب عبد الله فى هذا المقام ، ولا سيما بعد أن ساومته خديجة على شراء «ثويبة» التى أرضعت النبى لكى تعتقها وترفه عنها بأمره ، فأبى ابو لهب واستكبر ، وهل يكمل تصوير الجاهلية بغير مثل جاف هذا الجفاء ، غليظ هذه الغلظة ، عتل لا يعى شيئاً غير الصلف والتجبر على الضعفاء والفخر الجهول والكبرياء بالاجداد والآباء ووفرة الثراء ؟ وهل من صورة أقرب إلى هذا المقام وأشبه بتمثيل الجانب الخشن فيه من ابى لهب ؟ ان مكانه لمفقود فى هامش السيرة ، وان الجاهلية لن تبدو لنا فى جانبها الذى استوجب ظهور الاسلام وشقى به المسلمون أول الامر إلا على صورة من هذا الغرار

* * *

وبعد فقى « الهامش » عبارات يقف عندها القارىء لأنه يجزم بنبوها فى كلام أهل ذلك الزمان

مثال ذلك ما أجراه المؤلف على لسان الأمة «ناصعة» وهى تخاطب سيدتها فتقول : « مهلا ياسيدتى ارفقى بنفسك ولا تذهبى بها فى الخيال كل مذهب »

ولم يكن الاماء ولا غير الاماء يفهمن الخيال بالمعنى الذى نفهمه الآن

ومن امثلته ايضا قول فاطمة الخثعمية لعبد الله : « ان خير مافى الامكنة والدور انها ثابتة باقية لاتتحول ولا تزول الا فى بطء ، وان شر مافى الزمان انه لايعرف الهدوء ولا الاستقرار » وهذا الكلام عن الزمان والمكان ادنى الى كلام المتفلسفة فى القرن الثالث والرابع منه الى كلام النساء فيما قبل البعثة النبوية

وانها لهفوات لا يتجاوز عنها فى نقد « هامش السيرة » . اذ كانت شفاعته الكبرى انه يحكى زمانه ابسط الحكاية فى العقيدة والادراك والتعبير

لكنها طابع العصر أبى الا ان يتراءى فى كتاب اوشك ان ينقلنا الى عصره فى كل شىء . ولم يكد يذكرنا المؤلف فيه بنفسه الا مرة او مرتين

عباس محمود العقاد

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هدية الهلال الثانية

يهدى الهلال إلى مشتركيه فى هذا العام كتاباً تاريخيا نفيساً عن تاريخ ابراهيم باشا بعنوان « ابراهيم فى الميدان - او - العلم المصرى فى سوريا ولبنان » وقد اتى فيه مؤلفه الاستاذ حبيب جاماتى بذكر الحروب التى خاضت الجيوش المصرية غمارها بقيادة هذا القائد العظيم فى بلاد الشام والاناضول ، وافرغ المؤلف تاريخ هذه الحروب فى خمس وعشرين مرحلة ، خص كل مرحلة منها بقصة وافية التفاصيل بحيث يجد القارىء بين يديه خمسا وعشرين قصة فى مجموعة واحدة تتضمن أعمال ابراهيم باشا وما تم على يديه فى ذلك العهد الذى خفق فيه العلم المصرى فى تلك البلاد

وسيقدم هذا الكتاب هدية الى مشتركى الهلال فى هذه السنة . وهو كالهدية الأولى لا يرسل إلا الى الذين سددوا قيمة الاشتراك